

الحركة الثقافية و التعليمية بوادي البارد خلال الفترة الاستعمارية: أعلام و معالم The cultural and educational movement in oued el-Bared during the colonial period: figures and landmarks



أ.د سفيان لوصيف*

جامعة سطيف 2

s.loucif@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/01 تاريخ القبول 2025/05/05 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص:

يتناول المقال بالدراسة و التحليل التاريخي النشاط الثقافي و التعليمي بمنطقة وادي البارد خلال الفترة الاستعمارية من 1830 إلى 1962 م، و التي عرفت جهود كبيرة في المجال الديني و الاجتماعي من خلال دور العلماء و المصلحين، الذين تركوا أثرا بارزا في تعليم الأطفال في الكتاتيب و تحفيظهم القرآن الكريم، و أبرزنا انتشار هذه المدارس في الأرياف و دروها في نشر التعليم العربي الإسلامي، و قدمنا نبذة عن حياة بعض المصلحين مثل العالم أحمد بن بارة و لخضر بن يوسف، و في الأخير يمكن القول أن المقال يتضمن صفحات من المقاومة الثقافية الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي.

الكلمات المفتاحية:

وادي البارد - المشائخ و المصلحين - التعليم - الزوايا - الكتاتيب.

Abstract:

The article studies and analyzes the cultural and educational activity Oued al-Bared region during the colonial period from 1830 to 1962, which witnessed great efforts in the religious and social field through the role of scholars and reformers, who left a prominent impact on teaching

* المؤلف المراسل

children in the Kuttabs and memorizing the Holy Quran. We highlighted the spread of these schools in the countryside and their role in spreading Arab-Islamic education, and we presented a brief biography of some reformers such as the scholar Ahmed Ben Bara and Lakhdar Ben Youssef. Finally, it can be said that the article includes pages from the Algerian cultural resistance against the French occupation.

key words:

Oued el-Bared - reformers - Education - Corners - Kuttabs.

مقدمة:

لم تتأخر منطقة وادي البارد في خدمة العلم و الدين بل كان لها إسهام كبير، ففي كل قرن أو جيل كان يظهر من أبنائها من يدلوا بدلوهم في خدمة الدين و البلاد، و إن الذي يطالع سير شيوخ يزداد فخرا و اعتزازا، هؤلاء الأعلام كانوا نجوما في سماء العلم و المعرفة، و قد سارت بهم الركبان في كل مكان، و كان لهم شأن كبير، فقد كانت تزخر بفقهاء و علماء و مشائخ كثيرين، ضربوا منذ القديم بنصيب وافر في خدمة العلوم الشرعية، و جمعوا في جهودهم بين الاطلاع في كتب العلم و النظر فيها و استخراج كنوزها أو شرحها أو التعليق عليها، و غير ذلك من أنواع الإسهام العلمي.

1 - أرض المشائخ و الصالحاء.

عرفت وادي البارد بأولياء الله الصالحين و هو ما تحفظ له به الذاكرة الشعبية، من هؤلاء سيدي أحمد أو هلال دفين قمة تقع بين بني مسالي و بني ملا، و سيدي بلغيث يقع قرب عين سمطة في أعالي بني ملا، و سيدي عبد القادر الفاسي يقع بالقرب من بني دراسن، و سيدي أحمد أو ميرة، و سيدي بلقاسم و أحمد في سلان، سيدي لونيس في تاخروبت و غيرهم.

و قد كان هؤلاء دعاة و رجال إصلاح في المناطق و المسالك الجغرافية الوعرة، و حسب ما يروى أن هؤلاء مهاجرون أتوا من المغرب الأقصى، و في الفترة القريبة منا منذ أواخر القرن 18 م استقر الشيخ حافظي في دوار أولاد ميرة بوادي البارد، و محرق في

بابور، آت من دوار بني إليها من عرش بني حافظ¹ في ضواحي بني ورثيلان، و قد كان من مريدي الشيخ عبد الرحمن بن الحملاوي في زاوية واد سقان قرب التلاغمة.

و منح الإجازة ليكون مقدما بالمصطلح الصوفي أي ممثلا للشيخ الحملاوي في قرى وادي البارد، و اتخذ هناك مسجدا و كتابا لتعليم القرآن الكريم و إرشاد المريدين، و كان له تأثير في تلك القرى من توجيه و إرشاد و إصلاح بين الناس، و لازال المقر موجودا إلى اليوم حيث تقام فيه الصلوات من قبل أحد أحفاده.

و من الروايات الماثورة إلى درجة تقرب من اليقين أن أغلب هؤلاء قد جاؤوا إلى المنطقة كدعاة، فكان لهم دور في تمكين الدين الإسلامي بطريقة الحكمة و اللين بعيدين عن كل مظهر للتعالي، مما حببهم إلى الناس و قربهم إلى النفوس إلى درجة التقديس، فأصبح الناس يقدسونهم أحياء و أمواتا، إن الإسلام لا يعترف بوسيط بين الله و الناس، و لا مكان فيه أصلا لمثل هذا التقديس، بل لقد استنكر القرآن الكريم صراحة تقديس اليهود و النصارى للأحبار و الرهبان، قال الله تعالى: "اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ"².

الحق أن هؤلاء الأولياء بريؤون كل البراءة مما يقوم به بعض الجهلة من الناس، مع أن نياتهم في الحقيقة كانت مخلصه و لم يقصدوا الشرك، و هذا ليس من باب التأييد لهذه السلوكات التي تتنافى مع عقيدة التوحيد، و إنما فقط محاولة التصحيح أسس العقيدة الإسلامية، و تبين الحق من الباطل بدل التشنيع هؤلاء، كما يفعل بعض الناس الذين يدعون تصحيح الانحرافات السلوكية، هكذا عرضا من غير إلمامهم بوضعيات و أمية المجتمع.

إن هؤلاء الصلحاء الذين خاضوا معركة الدعوة و الإصلاح في حياتهم في منطقة عموشة، و شهد لهم الخاص و العام بالاستقامة، و بذل الجهد، و نكران الذات، في

عهد الظلمات المتتابة، و الجهل الأعمى الذي زرعه الاستعمار الفرنسي في جسد مجتمع وقع فريسة في مكائده، مما جعل أفراد المجتمع المحلي يهرع إلى هؤلاء السادة الذين كاد أن يتنكر لهم حتى التاريخ.

و قد نسجت عن هؤلاء الصلحاء أساطير من الكرامات، و الخوارق ما لا يمكن و لا نجزم من صدقها أو كذبها، مع رفض طبعا الكثير منها و التي تخرج عن حدود العقل، و التي تصل حد الخرافة و السذاجة إن عرضت على الناس و خاضوا فيها، و نحن ما يهمنا هنا هو المسار التاريخي للمجتمع و الأحداث، و ليس من شأننا الدخول في هذه المسائل الجانبية التي لا تقدم أو تؤخر.

و لنا أن نستدل بأساطير يرويها ' Manuel Bugéja ' قصة عن سيدي عطية في سبوكة قائلا: " في أحد الأيام كان سيدي عطية متواجدا وسط تلاميذه، قام باستدعاء أحد منهم، حدد له دجاجة ثم قال له: أأمر هذه الدجاجة أن تبيض، فقامت الدجاجة بالخضوع لأمر التلميذ، و وضعت بيضة، قام التلميذ بحملها إلى شيخه الذي قام برميها بكامل قوته إلى الجدار، سقطت البيضة سالمة تحت أرجل المرابط، و قد أخذت خصائص الحجر "3.

و تأكد بعض المصادر إلى درجة اليقين بأن أغلب هؤلاء الصلحاء كانوا وافدين من مناطق أخرى و ليسوا من سكان المنطقة، و كانوا يطلقون عليهم لقب الأشراف الذين ينحدرون من إقليم تافيلالت⁴ في المغرب، و آخرون منهم جاؤوا من حواضر أخرى إلى المنطقة فرارا بدينهم من تعسف السلطات و ظلمهم، كانوا يدعون الناس إلى الدين الإسلامي الخفيف، من صلاة و صيام و سائر الواجبات الإسلامية، و ينهونهم عن الظلم، و الفساد، و التحلي بالأخلاق الإسلامية ما أمكنهم و استطاعوا إليه سبيلا، و كان من ثمرة جهودهم أننا فتحنا أعيننا على الإسلام، من غير أن نتصل بالفاتحين الأولين

الذين يبدو من خلال التصور التاريخي و الجغرافي في أنهم لم يطوّروا هذه الأرض مباشرة، و إنما بجهود الصلحاء و الأتقياء.

2 - فقهاء و مشائخ منطقة وادي البارد خلال القرنين 18 و 19 م:

ما بين القرنين 18 و 19 م كانت هناك شخصيات فقهية دعوية، تقوم بدور التوجيه و التربية و التعليم و الدعوة إلى الصلاح في أوساط المجتمع، زيادة عن التعليم و تخريج طلبة و معلمين تسلم لهم مشاغل المهمة لمواصلة الدرب في الميدان، و كانوا في الحقيقة مراجع يرجع إليهم في مختلف القضايا الشرعية و الفتاوى الدينية، و كانت لهم اتصالات بالمراكز العلمية المنتشرة في العالم الإسلامي كجامع الزيتونة في تونس، و الأزهر الشريف بمصر، و القرويين في المغرب الأقصى، و مراكز أخرى علمية موجودة في مكة، و المدينة، و لاسيما خلال مواسم الحج و المكوث بعد أداء الفريضة لفترة طويلة حيث يتلقون دروسا في الحرمين الشريفين.

و تجدر الإشارة إلى أن هناك مراكز داخلية على مستوى الوطن اشتهرت بنشر العلم و المعرفة، و المحافظة على التراث المروي و المكتوب في مختلف المجالات الدينية، و الثقافية، و التاريخية، موزعة على مختلف الحواضر و المدن المعروفة منذ عدة قرون، منها على سبيل المثال لا الحصر مدينة تلمسان، قسنطينة، بجاية، بسكرة، عنابة، مليانة، الجزائر، زوايا حوض الصومام، زاوية شلاطة، و الشرفة في تازمالت، و يلولة التي ما زالت على أوج نشاطها في تخريج الطلبة في مختلف الاختصاصات و لاسيما أئمة المساجد⁵.

و في أواخر القرن 19 م و النصف الأول من القرن 20 م برز الفقيه محمد الطيب بن حافظ كمرجع ديني في المنطقة كاملة يقصد في مسائل الفقه و الفتوى⁶ و الإصلاح و التوفيق في التنسيق في المبادرات الخيرية، و من المعروف كان مقدما للطريقة الرحمانية، و التي يشرف عليها الشيخ بن الحمالوي صاحب الزاوية الحمالوية التي سميت باسمه في منطقة واد سقان في التلاغمة، و كان مقر الفقيه محمد الطيب بن حافظ في

وادي البارد، و كان يقصده دوريا من كانوا يسمون في عرف الطريقة الرحمانية بالإخوان، و الذين كانوا يأخذون منه الأوراد و الإرشادات الدينية و الفقهية، و خاصة التوجيهات الإصلاحية و الخلقية و لا تزال آثارها إلى اليوم.

و على ذكر ما سبق نذكر العالم سي أحمد بن بارة الزيتوني الذي انخرط في التيار الإصلاحية و الذي تشرف عليه جامع الزيتونة المبارك في زمانه، و الذي تعتبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فرعاً منه، و قد حمل المشعل بعده ابنه الشيخ محمد بن بارة، و الذي درّس في كتاتيب عدة في مناطق مختلفة و مات شهيدا خلال الثورة التحريرية.

و ما دمنا بصدد المداشر و ما تضمنته من معالم و أعلام ثقافية و دينية من الكتاتيب و المشائخ القائمين بها فإنه يتعين أن نذكر قرية لعوامر و التي كان بها كتاب قديم تداولت عليه مشائخ نذكر منهم محمد بن صخر في منتصف القرن 19 م، و أحمد عليوي المعروف باسم أحمد أو مسعود و تخرج طلبة عدة، كما علم فيه القرآن الكريم مشائخ كثيرون إلى زمن متأخر.

3 - زاوية حافظي:

استقرت عائلة حافظي بدوار أولاد ميرة في وادي البارد، و قرية مجرقي في بابور، و المتوارث في أدبيات أفرادها أبا عن جد أن العائلة تنحدر من أشرف المغرب الأقصى، و هاجرت منذ قرون خلت و استوطنت بعض منها في بادئ الأمر في قرية بني حافظ في بني ورثيلان، و منها انتقلوا إلى سفوح بابور و وادي البارد، و قدمت خلالها أعمالا جلييلة في الدعوة و الإصلاح، من خلال إنشاء كتاتيب في وادي البارد لنشر التعليم العربي الإسلامي، و التي ازدهرت في فترة الشيخ محمد الشريف و ابنه محمد الطيب.

و كللت جهودهما بتأسيس زاوية في دوار بني مسالي بعد أن استقر بها الشيخ محمد الشريف، و قد لاقت رواجاً و إقبالا من عامة الناس لاسيما سكان المنطقة، و لا يعرف تاريخ تأسيسها بالتحديد، لكن ما نعرف أنه حين أنشأت السلطات الاستعمارية

مدرسة فرنسية في دوار بني مسالي كانت الزاوية و الكتاتيب منتشرة في وادي البارد، و هدف الاستعمار هو عرقلة النشاط التعليمي الذي اعتنت به زاوية و مدارس الشيخ حافظي، و التي كان يقصدها الطلبة و حفظة القرآن الكريم من كل حذب و صوب. و قد كانت في بادئ الأمر كُتَّاب يعلم القرآن الكريم، و بعد أن تحصلت العائلة على إجازة من شيخ الزاوية الحملاوية في التلازمة و هي تتبع الطريقة الرحمانية أصبحت زاوية لها أتباع و مريدون، و كثير من أفراد عائلة حافظي درسوا في الزاوية الحملاوية، و تخرجوا منها و نخلوا من علمها، و من الذين أشرفوا على إدارة الزاوية الفقيه نذكر محمد الطيب خلال فترة 1900 - 1940، و خلفه في مشيخة الزاوية ابنه أحمد، و الذي تولاها في أحلك المراحل لاسيما أحداث سنة 1945، و ظروف الثورة التحريرية التي سقط فيها أحمد شهيداً⁷.

و قد تحدث المجاهد الشريف معوي في مذكراته عن الشهيد أحمد حافظي قائلاً⁸: " يستوقفني أيضا أحمد حافظي من قرية بني مسالي الذي كان حافظا للقرآن الكريم و معلما في قرية سيدي بوبكر بالصنادلة حاليا لمدة عشرين سنوات، و متحكما في الفقه، و الذي كنت أعرفه عندما كنت صبيا، فقد كان يزاوّل الإمامة و التعليم في منطقتنا، تعرفت عليه كمجاهد في درقينة سنة 1960 عندما جمعنا القدر في ملجأ رفقة مجاهدين آخرين كانوا معه لمدة أسبوع تقريبا، و قد استشهد في أحداث إغزر أوفتيس سنة 1961 كنت حينها مرابطا في الجهة... و التي سقط فيها حوالي 54 شهيدا على إثر مدهامة عسكرية واسعة النطاق قام بها الجيش الفرنسي على إثر وشاية و تطويق في قرية اعتاد مجاهدو المنطقة اللجوء إليها لأخذ قسط من الراحة أو تجميع السكان و تحسيسهم و توعيتهم، بحيث انتهت باستشهاد جل الذين كانوا فيها ".⁹

اشتهرت زاوية الشيخ حافظي في دوار بني مسالي بإسهامها الكبير في التكافل الاجتماعي بمختلف أنواعه، و نورد هنا بعض المظاهر مثل التصديق على المحتاجين و ما

يحتاجه الفقراء من المأكل و المشرب، و كان بها بيت السبيل يأوي من لا منزل و لا عائلة له، و بدورها استفادت الزاوية من الهدايا و العطاء و الهبات التي يمنحها الزوار و الأتباع كل حسب مقدوره، مما ساعدها على أداء أدوارها الاجتماعية و مهامها الخيرية⁹. و كان للزاوية دور في تأسيس مدرسة للتعليم العربي الإسلامي في وادي البارد مركز (عرش أولاد موسى بن السعيد) في نهاية الأربعينات من القرن العشرين (1948 / 1949)، على يد الشيخ عمر بن عبد الرحمن الحماوي شيخ الزاوية الحماوية خريج جامع الزيتونة¹⁰، في أرض منحتها عائلة بن غذفة، و أشرف على إدارتها أحمد حافظي مقدم الحماوية في المنطقة، و أسند مهمة التدريس إلى المعلم عمر أفتيس خريج زاوية بن سحنون.

و استمرت الزاوية في تدريس القرآن الكريم و مبادئ الشريعة الإسلامية للأطفال إلى اندلاع الثورة التحريرية، و خلالها رخص جيش التحرير الوطني بمواصلة عملها و اعتمادها مدرسة من مدارس الثورة و تكفلها بتسديد أجرة المعلم، و يذكر عمر أفتيس أنه ذات مرة اقتحمها الجيش الفرنسي، و هو يدرس تلاميذه فقال له الضابط الفرنسي أحرقت المدرسة الفرنسية و تدرسون أبناءكم اللغة العربية و الدين الإسلامي، و من ذاك اليوم أصبح التلاميذ يدرسون متنقلين من مكان إلى آخر، خفية عن أنظار الجيش الفرنسي و أعوانه¹¹.

و خلال الثورة التحريرية كان في زاوية حافظي مخبأ توضع فيه المخطوطات التي تنوعت في اختصاصها من علوم اللغة، و الفقه الإسلامي، و أصول الدين، و وثائق عن تاريخ العائلة و نسبها، يذكر أنها تقدر بمئات المخطوطات التي دونها مشائخ عائلة حافظي، و للأسف أنها اكتشفت من قبل الجيش الفرنسي و تعرضت للحرق و الإتلاف، و قد حفظ أبناء العائلة القرآن الكريم في زوايتهم نذكر منهم الشهيد محمد و إخوته عبد الرحمن، و الشريف، و محمود.

و بعد الاستقلال عمل فيها الشيخ بوزيد لطرش معلما للقرآن الكريم، و بقي أبناء العائلة على اتصال وثيق بالزاوية الحملاوية و واصلوا التعليم فيها، و مع التحولات الاجتماعية و الثقافية الحاصلة عامة على المجتمع بانتشار التعليم النظامي الذي أشرفت عليه الدولة حوّلت الزاوية إلى المسجد العتيق في دوار بني مسالي الذي يحمل اسم مسجد عثمان بن عفان¹².

و بعد السنوات العصيبة و الحرجة التي مرت بها المنطقة و الجزائر عامة في فترة التسعينيات و ما انجر عنها من هجرة جماعية للسكان نحو المدن، تعطل النشاط الثقافي و الديني الذي كانت عائلة حافضي تحرص على أدائه في وادي البارد بقراها و مداشرها، و بعودة الاستقرار و توفر الأمن و عودة الناس تدريجيا للاستقرار فيها يعمل الآن الشيخ و الأستاذ عبد العالي حافضي على تجديد المسجد و صيانتة و إقامة الصلوات و الجمع فيه، طامحا إلى إحياء المجد الحضاري و العلمي و الديني الذي عكف أجداده على تحقيقه.

و صفوة القول نستخلص أن زاوية حافضي استطاعت أن تحجز لنفسها مكانا لها في دوار بني مسالي، و تكون من المعالم الثقافية و الدينية في المنطقة، و تشع بنورها على طلبة العلم و الدين طيلة القرنين من الزمن، بفضل منهجها السليم في التعليم و التربية و نبل أهدافها و التزامها بضوابط العمل الديني و التعليمي، و التزام مشائخها على نشر العلم.

4 - العالم أحمد بن بارة:

ينحدر العالم الزيتوني أحمد بن بارة¹³ من عرش أولاد صالح الذي عرف بدءا من سنة 1900 م باسم وادي البارد¹⁴، و تسمية أولاد صالح يكاد ينطبق على أسر هذا العرش و أفرادها و هم مشهورون بالتضامن و الأعمال الصالحة المفيدة المادية منها و الأدبية، و لا غرو أن يبرز في بيئة صالحة رجال مصلحون مما يبرر هذا الاسم، و يجعله قرينة قوية لتبرير هذه التسمية، فالعالم أحمد بن بارة من خلال بحثنا المعمق وجدناه من

الأوائل الذين درسوا في جامع الزيتونة خلال أواخر القرن 19 م و 20 م من مشائخ دائرة عموشة.

و عن تاريخ مولده فإنه لم يسجل في الحالة المدنية الفرنسية إلا في سنة 1890 م، و طبعا هي سنة الشروع في تقييد المواليد في دفاتر الحالة المدنية بالمنطقة، و بحكم مقارنته بسن أبنائه و معاصريه اتضح لنا أنه من مواليد بالتقريب سنة 1870 م، زاول تعليمه الأول على يد والده الذي كان من مشائخ هذا العرش، رفقة الشيخ خثير شكير، و الشيخ محمد السعيد أفتيس، و الشيخ عمر نوري، و هؤلاء عاصروا بدايات الاحتلال الفرنسي في المنطقة، و رفعوا راية الجهاد ضد المحتل الفرنسي، في مقاومات عديدة أشهرها مقاومة سنة 1864 و مقاومة المقراني سنة 1871.

و بتعليم أحمد بن بارة للقرآن الكريم، و كان ختم القرآن يعد في ذلك الحين مرحلة مهمة من مراحل التعليم، تدعو للاعتزاز و توجب الاحتفال الذي يتلقى خلاله والد الطالب الذي ختم القرآن تحاني الأقارب و الأصحاب و أهل البلدة، و ازدادت رغبة الوالد و بدعم من المشائخ أن يرسل ابنه إلى بعض المعاهد المعروفة لطلب العلم، و على رأسها جامع الزيتونة الذي بقي فيه مدة طويلة، و هي فترة كانت كفيلة بنيله شهادة التطويع¹⁵، فقد كان مجتهدا في تحصيل العلم المعتمد في هذا الجامع، و أغلبه في الفقه و الدراسات الإسلامية على اختلاف فروعها، و مختلف فنون اللغة العربية من نحو صرف و بلاغة¹⁶.

إن الحديث عن حياة الشيخ أحمد بن بارة قد يكون من المفيد أن نسهب قليلا في الحديث عن تعليمه و ثقافته، ذلك أن توسعه و تعمقه في العلم هما اللذان جعلاه منه شيخا متعلما جليلا و معلما فقيها، و علمه و ثقافته و عمله الصالح جعلوا له مكانة رفيعة، و أهلوه لبلوغ مرتبة اجتماعية كبيرة، و ساعدوه على إنجاز أعمال رائدة خلّدت ذكره في قلوب الناس¹⁷.

كان الهدف الديني هو الهدف الرئيسي من الدراسة بجامعة الزيتونة، إذ تركزت الدراسة على نشر العلوم الإسلامية من جهة، و بث اللغة العربية لسانا و أدبا من جهة أخرى، أما العلوم العقلية كالمنطق و الحساب و علم الفلك فلم تكن تقرأ لذاتها، و إنما كانت لخدمة المعارف الإسلامية و العربية، إذ كان الحساب ضروريا لحساب التركات، و المنطق لاستنباط الأحكام الشرعية، و علم الفلك لمعرفة أوقات الصلاة و اتجاه القبلة¹⁸.

عاد الشيخ أحمد بن بارة من تونس و هو شاب في الخامسة و الثلاثين من عمره، و قد صقل ملكة الفقه عنده، و في البداية استقر به المقام بمنطقة وادي البارد و ما جاورها من مشاتي و أعراش¹⁹، كان رحمه الله وقورا جليل الهيبة، أبي النفس، كريم الطبع، جميل السمات، يربي بالقدوة و بالنظرة، و بالإغضاء، يلقي الناس بالبشر و بالترحاب، يحسن الظن في كل مسلم، و يجامل في أمور الدنيا، و لا يحايي في أمور الدين أحدا، كان فقيها يراعي ظروف السائلين، و اختلاف الزمان و المكان و تغير الأعراف، كان يملك روحا شابة، و يحسن التعامل مع الشباب، يتسامح معهم و يصغي إلى آرائهم، و يأخذ بيدهم و يرشدهم إلى الصواب²⁰.

و كان مرجعا دينيا في المنطقة و ريفها الواسع، و يستفتى من المشايخ الذين استفادوا من علمه و موسوعيته في العلم و الثقافة الإسلامية، فكان مرجعا في الفتوى و التعليم و التوجيه الأخلاقي و الإصلاح الاجتماعي بين الناس، و قد تخرج على يده في هذه المرحلة الكثير من الشيوخ الذين ملؤوا الفراغ فيما يتصل بحاجات الأهالي في التعليم و منهم العالم أحمد لخضاري.

كان بيته مقصدا لعابري السبيل القادمين من مختلف المناطق، كما كان ملتقى لشخصيات المنطقة و أولى الشأن منهم يتبادلون مشاعر الأخوة و المحبة، و يتذاكرون هموم الناس و أحوالهم، و كان الشيخ أحمد بن بارة حفيظا على أسرار الناس و البيوت، لا يفشي سر أحد منهم و لا يذكره باسمه أو صفته صونا للأمانة و حفاظا على السر.

عمل الشيخ أحمد بن بارة معلما مخلصا في جهات عديدة لا يكف عن العطاء و لا يمل من الدرس، يفسح صدره لطلاب العلم للنقاش و عرض وجهات النظر بلا ضيق، نذكر منها قرى وادي البارد، و تقربوست، و قرية طنجة في عموشة التي مكث فيها مدة طويلة، و أسس بها كُتَّابا للتعليم العربي الإسلامي، و لا يزال كبار السن يتذكرون إسهامه الديني لاسيما في تحفيظ كتاب الله، و قد خلفه ابنه الشهيد محمد الطيب في التعليم به إلى أن تعرض هذا الكُتَّاب إلى الحرق في أحداث 08 ماي 1945²¹.

و بعد حياة حافلة مليئة بخدمة كتاب الله تعالى، و تقديم العلم للناس، و تكوين الخلف من الأبناء و المشايخ، التحق الشيخ أحمد بن بارة بجوار ربه في أواخر الثلاثينات من القرن 20 م، تاركا وراءه علما نافعا ينتفع به، و ولد صالح يدعو له هو الشيخ محمد الطيب خريج زاوية بن سحنون المشهورة، و أحد أشهر مشايخ التعليم، و أحد رموز الثورة التحريرية و شهدائها.

5 - الشيخ لخضر بن يوسف:

لخضر بن يوسف بن عمر²²، و أمه قمير بن حافظ تنحدر من عائلة توارثت أبا عن جد حفظ القرآن الكريم و خدمة الإسلام، من مواليد قرية تيزمالين بوادي البارد سنة 1917، و مسجل في الحالة المدنية بتاريخ 19 مارس 1924، تعلم القرآن الكريم في سن مبكرة بكُتَّاب العائلة التي كانت تشرف على شؤون التعليم العربي الإسلامي في القرية منذ أمد بعيد يصل إلى فترة أواخر العهد العثماني، و برزت في هذا المجال شأنها في ذلك شأن الأسر المتعلمة بالمنطقة²³.

و كان الفتى لخضر بن يوسف من أبرز الصبيان الذين عكفوا على حفظ كتاب الله بداية في الشاقة - كما يعبر عنه - و هو الحفظ الأولي الذي يحتاج إلى عدة ختمات، قد تصل إلى اثنتين أو ثلاثة، لتحصيل الدقة و المهارة المطلوبة ليحصل على الإجازة لتمكنه بدوره من ممارسة المشيخة و التعليم، و اتصل بزواوية بن سحنون في

حوض الصومام لإتقان الحفظ أولا و تلقي الدروس الضرورية و الأساسية في العربية و الفقه، و التمكن من القدرة على إصدار الفتوى الشرعية و إتقان ما يحتاجه الناس حين تولي المشيخة و الإمامة.

و عرف عنه أنه كان طالبا نجيبا في تلك المعارف، و لاسيما في النحو حيث كان زملاؤه يلقبونه سبويه أي باسم واضع علم النحو، و لاشك أنه استفاد من جو هذه الزاوية التي كانت برامجها لا تخلو من العلوم المتصلة بالعقيدة و الفقه و الثقافة الإسلامية بصفة عامة، علما بأن الزاوية السحنونية كانت في عز ازدهارها في ذلك العهد، و لما أحس بالكفاية و التحصيل في علوم الدين و الشريعة من فقه، و حديث، و علم الفرائض، رجع إلى منطقته برصيد هام يؤهله لأن يكون شيخ القرية، و معلم الصبيان و إمامة الناس في الجمع و الأعياد، و كذا الاضطلاع بالفتاوى التي تعرض عليه في القرية بين الحين و الآخر.

انخرط الشيخ لخضر بن يوسف في جمعية العلماء المسلمين فرع سطيف الذي بدوره له خلايا كانت تنشط في عموشة²⁴ و خراطة و العلمة، فشارك في نشاطاتها التي انصبت على المشاركة و تنشيط الكشافة الإسلامية، و إنشاء جمعيات فرعية للشباب أطلق عليها اسم 'الشبابية' نسبة للشباب، و التي كان الغرض من إنشائها توعية الشبيبة و إقناعها بالخروج من حالة الركود و الجمود التي كان عليها أغلب الشباب الجزائريين، و من أبرز الناشطين في هذا الفرع نذكر: الشيخ لخضر بن يوسف، عبد القادر بن علاق، أحمد بن دريس، لخضر صخراوي، الربيع بن علاق و غيرهم.

و كان لنشاطه الإصلاحية الحثيث دور لأن يكون من العشرة الأوائل المرشحين إلى إتمام الدراسة بجامعة الزيتونة بتونس، من قبل المشرفين على شبيبة جمعية العلماء المسلمين و الذي كان هو عضوا فيها آنذاك، و لم يكن بعيدا عن أنظار السلطات الاستعمارية التي كانت تتعقبه مع أصحابه، و الذين قضى على أغلبهم في مجازر 08

ماي 1945، و كانت نجاته بسبب الحالة المرضية التي كان عليها فحين داهم جنود الجيش الفرنسي منزله في بداية الأحداث وجدوه طريح الفراش فاعتقلوه و أودع السجن بسطيف لفترة و صدر أمر العفو عنه²⁵.

كما مارس الشيخ لخضر بن يوسف التعليم و الإمامة في عدة قرى و مداشر، منها في نواحي الدهامشة، و انتقل بعدها إلى قرية برادمة، و قرية جرمونة على التوالي و هما تقعان بالقرب من خراطة، و مارس هناك المشيخة و لعب دورا هاما في تصحيح المفاهيم الشرعية و تعليم الناس الفقه الإسلامي، و درّس في قرية إعرمان و المرابطين في تيزي نبشار، و قبيل الثورة التحريرية عمل إماما و معلما في قرية الرحامين بذراع القايد.

بدأ مشواره الثوري منذ اندلاع الثورة التحريرية، حيث أمر أفراد عائلة بن يوسف أن يتركوا الديار، و يلتحقوا بركب الثورة التحريرية انطلاقا من جبال بني فلكاوي الحصينة، و هذا مع رفاق الجهاد مثل شلاي الطاهر و آخرين، الذين بدأوا العمل الثوري في القسم الثالث الناحية الأولى الولاية الثانية، و كان انخراطها جماعيا و قدمت عائلته الغالي و النفيس من أجل تحرير الوطن و قدمت خيرة أبنائها شهداء و هم الإخوة الحسين و السعيد و الشيخ لخضر، و عنهم مسعود²⁶.

و بحكم صفته كمتقف و ملم بالمسائل الفقهية و الشرعية عين عضوا قياديا في المجلس الشرعي للقضاء بجيش التحرير الوطني في منطقة بابور، و كان من أعضاء المجلس الشيخ إسماعيل عماروش من جيجل، و الشيخ أحمد حافظي، الشيخ سليمان خنتوت، فكان الهدف من هذه المجالس و اللجان القضائية هو الإصلاح و الصلح و تطبيق العقوبات، و اكتسب الشيخ لخضر بن يوسف و رفاقه خبرة القضاء في الميدان من 'دماثة أخلاقهم، و عمق إسلامهم، و معرفتهم الدقيقة بأحوال شعبهم من القيام بمهمة القضاء و على أحسن وجه'²⁷.

يشهد كل من عرف الفقيه لخضر بن يوسف بموسوعيته، فقد حباه الله بمواهب فطرية، و نفس كريمة عالية، فكان إلى جانب علمه الواسع و شاعريته القوية الفياضة، يحب الخير و يسعى في بذله و النفع به، و لذا كان يحرص على نفع الطلبة و الأخذ بأيديهم، و يفهم أوضاعهم و أحوالهم، و لاشك أن هذه المعاملة تستميل القلوب، فأينما حلّ الشيخ لخضر بن يوسف كان موضع التقدير و الاحترام، إضافة إلى أن الشيخ كان يعنى بهندامه، و يحرص على أن يكون دوماً أنيقاً في لباسه، جيداً في لغته، قوياً في سلوكه.

و بقي يشغل في منصبه كقاضي في جيش التحرير و ينتقل من قرية إلى قرية و من دوار إلى دوار مؤدياً رسالته النضالية بإخلاص في حل الخلافات و الصلح بين الناس و إبعاد الفتن، و تسجيل العقود كالزواج و المواليد، و تدوين البيوع و إبعاد الناس عن المحاكم الفرنسية حتى استشهاده في مارس 1960 في قرية أولاد ميرة بوادي البارد²⁸.

6 - الكتاتيب القرآنية في وادي البارد:

شهدت منطقة وادي البارد مشروعا استعماريا قائما على محاربة اللغة العربية، و تضيق الخناق على مشائخها و طلبتها، و تشديد الرقابة على مراكز التعليم الحر لاسيما التعليم في الجوامع و المدارس الحرة، و رغم هذا فإن المنطقة ظلت متمسكة بنشر المعرفة التي كانت متوجهة نحو العلوم الدينية و خاصة الفقه المالكي، و كان التعليم منتشرا في كل الدواوير و القرى، و تكفل مشائخ المنطقة من حفظة القرآن الكريم و فقهاء مهمة التعليم العربي الحر، و قد تخرج على يدهم العديد من أبناء المنطقة و ضواحيها، و كانت جهود المشائخ منصبة على تحفيظ القرآن الكريم.

و تعد الكتاتيب أو كما تعرف في بعض المناطق باسم المسيد²⁹ أول مرحلة تعليمية خلال هذه الفترة — أواخر القرن 19 و القرن 20 م — أو كما كانت من قبل، و تعد الكتاتيب مدارس أولية لتعليم الصغار، و سن ابتداء التدريس فقد كانت بوجه عام

متروكة لتقدير آباء الصبيان بين الخامسة، و السادسة، أو السابعة التي فيها يستوعب الطفل دروسه فيها³⁰، و كانت الألواح الخشبية هي الوسيلة التعليمية في الكتاتيب، حيث يكتب فيها التلاميذ ليتعلموا القراءة و الكتابة، بالإضافة إلى قلم من القصب و دواة للحبر يستعملونها للكتابة³¹.

و كثرت الكتاتيب القرآنية، و كانت منتشرة في جميع القرى و المداشر، و لا تخلو جهة منها، يحفظ فيها القرآن الكريم و تعليم مبادئ القراءة، و الكتابة، و الحساب، بنيت الكتاتيب في عهدها السابقة بالطوب و الحجارة على شكل منشآت متواضعة وسط القرى أو المداشر، و هي مقر لمؤسسة اجتماعية تربوية لتعليم القرآن الكريم، كما يعتبر أول بناية تربوية اجتماعية يلجها الأطفال لقراءة و حفظ كتاب الله تعالى و تنشئة الأطفال و غرس القيم الخلقية في نفوسهم.

الواقع أن الكتاتيب كانت السمة البارزة لكل مشاتي و قرى المنطقة على اختلاف مستوياتها و ظروفها، و التي كان لها الدور الأساسي في المحافظة على القدر الضروري من التربية الدينية و الثقافة العامة و نحو الأمية لغالب فئات المجتمع و هذا بصفة عامة.

و نخص بالذكر هنا جهة أولاد صالح المعروفة باسم وادي البارد فإن هذه المنطقة كانت عامرة بالمساجد و الكتاتيب القرآنية، انتشرت في قرى أولاد ميرة، و أولاد عياد، و أولاد موسى بن السعيد، و بني دراسن، و بني ملاّ، تيزمالين، و بني مسالي،

و في الفترة القريبة منذ أواخر القرن 19 م استقر الشيخ حافظي في بني مسالي آت من عرش بني حافظ في ضواحي بني ورثيلان، و قد كان من مريدي الشيخ عبد الرحمن بن الحملاوي في زاوية واد سقان قرب التلاغمة، و منح الإجازة ليكون مقدما بالمصطلح أي ممثلا للشيخ الحملاوي في قرى وادي البارد، و اتخذ هناك مسجدا و كتابا لتعليم القرآن الكريم و إرشاد المريدين، و كان له تأثير في تلك القرى من توجيه و إرشاد

و إصلاح بين الناس، و لا زال المقر موجودا إلى اليوم حيث تقام فيه الصلوات من قبل أحد أحفاده³².

و في قرية أولاد موسى بن السعيد تولى مشيخة التعليم كل من العربي حافظي، و محمد بو الحية من عين الكبيرة، و في قرية أولاد عياد تعاقب على التعليم العربي الإسلامي كل من عمر نوري بن أحمد، و دربال السعيد، و إبراهيم مجماج، و في بني مسالي توجد مدرسة حرة أشرف عليها محمد حافظي و كان معلم القرآن الكريم و إماما³³.

و خلاصة القول يمكن القول أن هذه الكتاتيب البسيطة بوسائلها المحدودة كادت أن تقضي على الأمية، و بالتالي فإن الكُتَّاب في أي قرية صغيرة أو كبيرة بالنسبة لأهله فهو مدرسة للصبيان، و مصلى تؤدي فيه الصلوات المكتوبة و صلوات المواسم و الأعياد، و مكان للتجمع لربط العلاقات الاجتماعية و حل المشاكل، و فض النزاعات، و قضاء كل الأمور الاجتماعية.

و كل هذا لم يتأت من فراغ بل كانت نتيجة لما أثمرته تلك الكتاتيب القرآنية، و التي صهرت المجتمع في بوتقة الإيمان و الإصرار و التحدي، حتى أصبحت هذه السلوكات من مميزات المجتمع المحلي، و الذي كان يصير أفرادها على القراءة و التحصيل حتى خارج الكُتَّاب، فقد اتخذوا حتى ظلال الأشجار و الأحجار و غيرها لممارسة حفظ القرآن الكريم، و قد مارسوا الحفظ باستعمال الألواح حتى خلف المواشي و الرعي، فيقرأ كل فرد حسب إمكانياته ليرجع إلى الكُتَّاب لعرض ما كتبه على شيخه، و الذي يقره على ما حفظه أو يطالب منه مواصلة الحفظ و الإتقان.

و قد لعبت الكتاتيب القرآنية أدوارا طلائعية في تاريخ منطقة عموشة خاصة في زمن الاستعمار الفرنسي، باعتبار كونها مصنعا للعلماء، و مشتلا لإنتاج المشائخ، و المقاومين الذين دافعوا بدمائهم و أرواحهم من أجل استقلال البلاد، و كانت للكتاتيب القرآنية أدوار فعالة في تربية الأجيال الناشئة تربية إسلامية رصينة، من خلال تحفيظها

القرآن الكريم و علومه، بالإضافة إلى صونها للمقومات الروحية للمجتمع، و الحفاظ على هويته و خصوصياته.

خاتمة:

و صفوة القول يمكن القول أن منطقة وادي البارد بحكم موقعها الجغرافي، و مسارها التاريخي، و بيئتها المحافظة كانت لها عوامل ساعدتها على امتلاك الخصوصية الحضارية المتضمنة لتقاليد عريقة متصلة بالدين الإسلامي، و الثقافة العربية الإسلامية لاسيما و أن المنطقة تحتل موقعا إستراتيجيا، حيث كانت ممرا بين مناطق السهول و الجبال، و بين مناطق عدة لاسيما في الفترة الإسلامية حيث كانت ممرا بين العواصم الحضارية الكبرى مثل بجاية و قسنطينة و غيرها.

و هذا ما جعل المنطقة تستقطب علماء و دعاة، و رجالا و أعلاما كانوا معروفين في زمانهم، و هناك قرائن تشهد على ذلك و هي وجود أماكن تحمل أسماء مثل شخصيات مرج عبد المؤمن، و أبو العباد، و عين السلطان، و شواهد غير هذا كثير، مما أثر في المنطقة تأثيرا إيجابيا بليغا، و ما يؤكد أن المنطقة كانت عامرة بكل المقومات الحضارية و الثقافية، و غرس السلوكات الأخلاقية، و التي بقيت مستمرة عبر عدة قرون، و يظهر ذلك في الآثار الإيجابية الباقية إلى اليوم متمثلة في بروز طائفة من الطلبة و المشائخ الذين بقوا محافظين على هذا الإرث الديني و العلمي، و الذين لا يستهان بمجهوداتهم و تأثيرهم في المجتمع.

الهوامش:

¹ تنتسب هذه العائلة قرية بني حافط الواقعة ببلدية عين القراج دائرة بني ورثيلان، و اشتهرت بكثرة مشائخها و حفظة القرآن و أشهر بن برز فيها المولود الحافظي.

² سورة التوبة، الآية 31.

³ M. Manuel Bugéja: Monographie de la commune de Takitount, 465.64deuxième partie, p. 4

⁴ عرف إقليم تافيلالت بالشرفاء الحسنيين و العلويين، و يرتفع نسبهم إلى محمد النفس الزكية، جاء أجدادهم إلى المغرب نحو القرن السادس للهجرة (ق 13 م) و سكنوا واحة تافيلالت جنوب جبال الأطلس الأعلى بالقرب.

⁵ هي حواضر علمية و ثقافية تناولها أبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي.

⁶ أنظر ملاحق.

⁷ الشهيد حافظي أحمد: ولد في 13 ديسمبر 1921 ابن محمد و تواتي فطيمة، عاش و نشأ في عائلة محافظة على التقاليد الإسلامية مما دفعه إلى الجهاد، التحق بالثورة كعضو في جيش التحرير سنة 1958 في المنطقة الأولى الولاية الثانية القسم الثالث، كان برتبة جندي، استشهد عام 1961 بعد عملية تمشيط قام بها الجيش الفرنسي في المنطقة الأولى، و في أحد الكمائن التي نصبت للمجاهدين بجبال المنطقة، و تبادل الطرفان الرصاص لتتحول إلى معركة كبيرة، استشهد فيها عدد من المجاهدين و من بينهم أحمد حافظي و قتل بعض من الجنود الفرنسيين، أنظر: شهداء بلدية وادي البارد، قسمة المجاهدين لبلدية وادي البارد ولاية سطيف.

⁸ مذكرات المجاهد الشريف معوي حول كفاح منطقة خراطة 1958 – 1962، دار الفجر، قسنطينة، 2018، ص. 57.

⁹ شهادة أدلى بها محمود حافظي.

¹⁰ قال عنه الشيخ بلهاشمي بن بكار مفتي معسكر في كتابه مجموع النسب و الحسب قائلا: " هو الشيخ سيدي عمر بن الشيخ سيدي عبد الرحمن الحملاوي رحمه الله و قد اجتمعت بهذا الرجل العظيم في مدينة الجزائر فرأيت ملكا في صورة مسكين، تلذه الأعين و تعظمه القلوب و ترضاه الأرواح و العقول، و لما هو قائم به في زاويته من العمارة العظيمة و نفع الأمة بتعليم القرآن العظيم و دروس علوم الشريعة في فنون عديدة على وجه منظم، و قد تواتر تخريج الكثير من التلامذة الناجحين في حفظ القرآن العظيم و تحصيل العلوم من هذه الزاوية، مع ما له من الإرشاد و حسن التربية و النصيحة في الدين من إتباع الكثيرين لهذه الزاوية من المؤمنين عباد الله الصالحين، نفعا الله ببركاتهم آمين.

¹¹ شهادة أدلى بها الشيخ عمر أفتيس.

¹² شهادة أدلى بها عبد العالي حافظي.

¹³ عرف لدى عامة الناس باسم أحمد أو الموهوب.

¹⁴ M. Alquier : Notice concernant les communes du département de Constantine, Vve D. Braham Imprimeur – Editeur, Constantine, 1927, p.123.

¹⁵ كانت الدراسة في جامع الزيتونة قبل صدور الأمر العلمي في 30 مارس 1933 تستغرق سبع سنوات على مراحل تعليمية ثلاث الابتدائي الثانوي و العالي، و لكن هذه الأطوار لم تكن لها شهادتها الخاصة بها، بل كان الطالب يتخرج بشهادة واحدة هي شهادة التطويق عند التخرج، أنظر: الزيدي علي: الزيتونيون و دورهم في الحركة الوطنية التونسية 1904 – 1945، ط 1، مطبعة دار نهي، صفاقس، 2007، ص. 29، 30.

¹⁶ شهادة الشيخ عمر أفتيس.

- 17 المصدر نفسه.
- 18 محمد بوطيبي: " التعليم في جامع الزيتونة خلال النصف الأول من القرن 20 م - دراسة في المنهج و البرامج -"، المجلة المغاربية للمخطوطات، ع جوان 2017، ص. 198-200.
- 19 شهادة الشيخ عمر أفتيس.
- 20 شهادة أحد معاصريه السعيد لوصيف.
- 21 يذكر يوسف كبور أحد الشهود العيان متحدثا لنا " أن هذا المسجد الذي يضم كُتّابا أحرق خلال مجازر 08 ماي 1945 على يد الجيش الفرنسي و قوات المجندين الأفارقة المعروفين باسم ' الساليجان '، و لم تسلم الألواح الخشبية من الحرق و التلف، و لأن للكُتّاب دورا كبيرا في تثبيت قيم الإسلام النبيل لدى الناشئة اضطّر سكان القرية بعد هذه الأحداث إلى إعادة بنائه و تجديده، و مواصلة التعليم فيه.
- 22 لخضر بن يوسف بن عمر بن العربي بن أحمد بن محمد، و تذكر الروايات المتوارثة في العائلة انتسابها الولي الصالح دفين مدينة مليانة، و أن أحفاده هاجر منهم اثنان إلى منطقة وادي البارد، الأول يحمل نسله لقب ملياني، و الثاني بن يوسف.
- 23 شهادة أدلى بها مصطفى بن يوسف.
- 24 تفاصيل عن الخلية التي كانت تنشط في عموشة أنظر مبحث: نشاط جمعية العلماء المسلمين في المنطقة.
- 25 شهادة أدلى بها مصطفى بن يوسف.
- 26 شهداء عائلة بن يوسف، فهرس شهداء بلدية تيزي نبشار، أرشيف متحف المجاهد سطيف.
- 27 وزارة المجاهدين: أعمال الملتقى الوطني حول القضاء إبان الثورة التحريرية، المنعقد يومي 16 و 17 مارس 2005، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، ص. 170.
- 28 سجل خطأ في تاريخ استشهاد الشيخ لخضر بن يوسف في النبذة التاريخية التي سجلت على مستوى مصالح مديرية المجاهدين و ذكرت بأنها سنة 1958، و هو ما ينفيه ابن الشهيد مصطفى، و يؤكد أن سنة 1960 تاريخ استشهاد.
- 29 المسيد: كلمة حرفت إلى الأمازيغية و أصلها المسجد، و هذا للتمييز بين المسجد الذي هو مكان للصلاة، المسيد الذي هو مكان للتعليم، أنظر: عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب العربي من القرن 16 إلى القرن 19 م، معهد الدراسات العالية، 1958، ص. 66.
- 30 عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص. 142 .
- 31 الطيب سعودي: الكتابات قلاع الحفاظ على الهوية و الأصالة، جريدة الخبر، ع، 21 سبتمبر 2018، ص. 4، 5.
- 32 شهادة أدلى بها الشيخ عمر أفتيس.
- 33 المصدر نفسه.